(٣)

بين جويس وبرنارد شو

وهنا يحضرنى مثل آخر وهو ذلك الرجل الذى بلغ أرذل العمر ، وعاد لايعلم من بعد علم شيئاً الذى يمجده المغرورون والمخدوعون وهو أكبر دجال على سطح الأرض ، أقصد الى من يدعى جورج برنارد شو ، فهو الآخر ايرلندى كاثوليكى هاجر من وطنه الى عاصمة سادته ليعبد فى هيكل المال والشهرة ، وليمجد سدنة هذا الهيكل وينحنى أمام قوتهم كما يفعل أحقر بهلوان !

هذا الرجل بدأ حياته اشتراكياً من مؤسسى الجمعية الفابية واختتمها خادماً لرؤوس الأموال وممجداً للجنيه والشلن والبنس ، لا أنقده ولا أحقره عدواناً بل عدلاً . اسمع الى ما قاله فى حق جيمس جويس وكتابه :

« أنا لا أستطيع أن أسطر الكلمات التى استخدمها مستر جويس ، فقلمى المتزمت يمتنع عن رسم الحروف ، ثم إنى لا أجد فى وقاحاته الطبية الصبيانية (هكذا) ، أو فى تفاهاته التى يعتز بها

مايستحق الاهتمام » !!

وقد ألقى برنارد شو بنسخته من يوليسيز فى نار المدفأة (هكذا يروى) قائلا : « إن هذا الكتاب يثبت أن رجال دبلن وغلمانها لايزالون على ماكانوا عليه فى أيامى من قذارة (كذا) فى التفكير ، لا سبيل الى إزالتها ، هذا كل ما هنالك » .

ونبادر الى القول بأن تلك النسخة ، التى أحرقها شو ، إنما وصلت الى يده عند ظهور الكتاب ، أى منذ خمس وعشرين سنة ، ولم يكن شو قد وصل الى سن التخريف أو الطفولة الثانية ، وكان مايزال مالكاً بعض قواه العقلية ، فهو لايستحق أن يعذر بسبب الشيخوخة .

ولكنه أحرق النسخة ، ليقدمها قرباناً الى سادته الذين دأبوا من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٣٦ على مصادرته وإحراقه ، وتفتيش أمتعة المسافرين وأغراضهم ، للعثور على نسخ مخبأة ليصادروها فى الموانى والثغور ، ثم الحكم على طابعيها وناشريها بالغرامة المبهظة فى كل من لندن وفوكستون وهارتيس ونيوهافن وكاليه ، وقد صادروا وأحرقوا بهذه الطريقة الجائرة عشرات الطبعات ، وألوف النسخ ، فأحرق شو نسخته تقرباً وتوداً وخضوعاً لهؤلاء السادة ،

وذم سيده وأستاذه (وإن يكن جويس أصغر منه سناً) ، ليبرأ الى أربابه من شبهة مشاركة جويس فى ذنبه ولو بقراءة كتابه ، دع عنك تقريظه أو الثناء عليه ، لأن جويس نال من الحكام نيلا، ولأنه كاتب ثائر على الظلم والفساد والبغى والطغيان ، ولأن صمت شولا يكفى، بل وجب عليه أن يعلن رأيه وينادى بتكفير ابن وطنه الذى قام بما كان يجب عليه هو أن يقوم به ، ولأنه حسد جويس ونفس عليه قدرته ونبوغه ومواهبه ، ولم ينل هو شأوه .

وسبب هذه النذالة البرناردشية (نسبة الى برناردشو) أن كليهما خرج فقيراً مضطهداً من وطنه ، وكلاهما شاعر بالذل والصغار والظلم الواقع على أمته ، ولكن شو تعاقد مع إبليس بأن باع قلمه ونفسه وضميره ، وكتب وخطب ولم يمسس شعور السادة ولم يسألهم « ثلث الثلاثة كام » حتى فى أشد سنوات الثورة الأيرلندية ، ولم ينس الانجليز له هذه المداجاة على حساب قومه ، فأكرموه وعززوه وأقبلوا على سخافاته فى التمثيل والتأليف ، وطبعوا الملايين منها وهو يهرج ليضحكهم ، ويهذى ويخرف ليرضيهم ، بعد أن تعاقد معهم ضمنياً على أن لا يتعرض لحكمهم فى بلاده لقاء أنهم لايضطهدون ثمرات قريحته الكاسدة ، وقد اختار

عاصمة ملكهم وطناً له ، وفضل أن يقيم فى الطبقة العليا ، وترك أهله وإخوانه فى القاع والقعر وغيابة الجب، يصنع بهم الغاصب مايريد ، ومن هنا جاءه المال والشهرة والنفوذ على حساب خيانته الصامتة لوطنه .

ومثله فى ذلك ، مثل أعيان الهنود (منهم الكتاب والساسة والعلماء) الذين نزحوا من الهند ، وعاشوا فى لندن ، فرحب بهم الحكام ، وجعلوا من بعضهم أعضاء فى المجلس الملكى الخاص ، مثل الأمير على المسلم ، المتزوج من سيدة إنجليزية ، وكان يعيش فى بيته عيشة المنبوذ كما وصفه أحد أبناء وطنه وملته فى سنة ١٩٠٩ بلندن .

فطلب الدنيا وإقبالها ينسى الدين والوطن والعرض والشرف عند بعض الناس ، ومن هؤلاء ت.ب أوكونور الأيرلندى الذى ورد سجل المهاجرين على لندن فقيراً معوزاً وهو كاتب موهوب ، فألف كتاباً فى ترجمة حياة لورد بيكونسفيلد ، كان سبباً فى شهرته فمدّ السادة يدهم اليه ، وانتشلوه من وهدة الفاقة ، ورشحوه للبرلمان وأعانوه على تأسيس جريدة باسمه T.P. O'conner ومازال بها حتى مات، وقد قضى حياته فى البرلمان والصحافة غنياً ممقوتاً من بنى

وطنه الأيرلندين ، فليست العبرة بالمواهب أو الحاجة ، إنما العبرة بالخلق والمبدأ .

كان جويس أقدر من كل من هؤلاء وأفقر ، ولكنه لم يبق فى لندن خشية الوقوع فى حبائل هؤلاء السادة الذين يحسنون اصطياد الرجال وشراء الذمم ويكافئون باعتها مهما طال الزمن .

وكان أول ما كتبه جيمس فى التاسعة من عمره مقالة فيها نقد مر لمسلك هيلى عقيب خروجه على زعيمه بارنل ومازالت هذه المقالة تعتبر من أرقى وأبلغ ما كتبه جويس (نقلا عن بادريك كولم ص ٩ من مقدمة « أهل دبلين ») وكان عنوان هذه المقالة باللاتينية « وأنت أيضا يا هيلى » ! اقتباساً عن يوليوس قيصر فى مسرحية شكسبير « وأنت أيضاً يا بروتس » .

وهيلى هذا أحد أنصار بارنل وأشد المعجبين به ، انقلب عليه وتنمر له عندما وقع هذا البطل ضحية للدسائس والفتن وفريسة لمؤامرة جلادستون ، فسبّه وانقلب عليه وقذف فى حقه ، وكان عوناً لأعدائه ، فمكنه السادة من دخول البرلمان والبقاء به ثلاثين عاماً رئيساً لحزب لا عضو فيه سواه ، فهو الزعيم والرئيس والوكيل والأعضاء ، وكان اسم حزبه « الحزب الأيرلندى المستقل » ، حتى

استقلت ايرلاندا فعينوه حاكماً عليها قبل أن تعلن النظام الجمهوري، وبلغ أرذل العمر ومات ملوماً محسوراً .

ولو أراد برنارد شو شيئاً من هذا لناله ولكنه فضل الدراهم والدنانير ورصيد المصرف الكبير .